وعدت فأوفت

استيقظت " أميرة " من نومها عندما أذن المؤذن لصلاة الفجر – باحثة خدمة مواطنين بإحدى المصالح الحكومية ، تعدت العشرين بثلاثة أعوام تحمل وجها ملائكيا تتجلى فيه براءة الأطفال ، تعلوه ابتسامة لا تفارقه – أدت فريضة الصلاة التى اعتادت أن تؤديها فى وقتها ، ثم دخلت المطبخ تنظف الأواني وترتب محتوياته ، وتجهز كل متطلبات يومها رغم إلحاح " حماتها " أن تترك كل شئ وتهئ نفسها للذهاب لعملها .

أعدت طعام الفطور ووضعته أمام " حماتها " كعادتها منذ سفر زوجها للعمل بدولة عربية بعد أن أمضى معها شهر العسل ، كانت ثمرة ذلك الشهر أن ترك فى أحشائها بذرة لجنين أوشك أن ينهى شهره السادس .

ودعت " أميرة " حماتها وخرجت فأسرعت خلفها ترقبها فهى تراها اليوم أجمل من كل الأيام التى مضت .. كلها حيوية ونشاط .. سارت خلفها عشرات الخطى ، ولم تتوقف إلا بعد أن ألحت عليها " أميرة " وأخبرتها أنها سوف تعود اليوم مبكرا فإنها لن تنتظر نهاية الدوام .. فتسمرت فى مكانها حتى اختفت عن أعينها ولفها الغلاف الجوى بتلابيبه الشفافة فعادت إلى المنزل وهى تحمد الله أن وهب ابنها زوجة طيبة مطيعة .

وصلت " أميرة " إلى عملها ، وجلست وسط زميلاتها وقد أضفت روح المرح والبهجة كعادتها على المكان كله .. إنها تفيض

دائما بالأمل .. فهى رغم الشهور القليلة التى زاملتهن خلالها إلا أنها استولت على حبهن جميعا ونالت ثقتهن وأصبحن لا يقوين على فراقها لحظة .

أعدت " أميرة " أكواب الشاى وملأت زجاجات المياه المثلجة لزميلاتها بالمكتب واستأذنتهن كى تحدث أمها تليفونيا من السنترال القابع على ناصية الشارع .. فإنها تشعر برغبة ملحة فى سماع صوتها والتحدث إليها ولا تستطيع مقاومة تلك الرغبة .. وأمضت بعض الوقت وعادت دون أن تتمكن من محادثتها لازدحام السنترال بعملائه الذين يسددون الفاتورة الواجبة السداد .

اتكأت " أميرة " على ساعدها اللحظات ، ثم احتوت رأسها بين كفيها ، ومالت برأسها إلى مكتبها والتزمت الصمت .. لم تلبى نداء زميلاتها ، تحسسنها .. إنها كمن انتابتها إغماءة حملنها وأسرعن إلى المستشفى القريب .. فحصها الطبيب .. ولكنه لم ينطق .. تغيرت سحنته .. وحدث ما لم يكن فى الحسبان .. لقد فارقت الحياة .. اغتالها رسول المنايا من دنيا الفناء .. اقتادها إلى الحياة الأبدية.

لا غريب فى الحياة عندما تظهر الغيوم وبعد لحظات تبكى السماء .. ونبكى معها .. هذه هى الحياة .. ستنتهي بالموت لا محالة .. لنستقر بظلمة القبور .

إن البيت الذي غادرته " أميرة " منذ ساعات وهى تفوح بالحيوية والنشاط عادت إليه صامتة صمت القبور وكأنها لم تولد أو كأنها ولدت ميتة ، حملوها إلى المسجد ، وفى القبلة وضعوها ، صلوا عليها صلاة لا سجود لها ، من قبل كانت تصلى .. واليوم يصلى عليها وساروا بها فى خطوات جنائزية رتيبة إلى المقابر ..

فرغ حفار القبور من دفنها ووارى جثمانها التراب .. انصرفوا جميعا وتركوها وحيدة .. لا أنيس ولا جليس .. ففى القبر لا أنيس سوى العمل .. إن الصدمة قاسية .. والفراق مرير ..واستنشق جموع المعزين تراب القبور الممزوج ببقايا الجماجم والجثث المتحللة.

أتكون قد اكتشفت أنها تعيش فى دنيا الزيف والكذب والبهتان .. ولم تسعد بعيشتها تلك فذهبت باختيارها تبحث عن عالم آخر يسوده الطهر والصدق والمحبة ، لعل الموت كان بها رحيما .

إنها قطعت على نفسها عهداً بأن تعود اليوم من عملها مبكرا دون انتظار نهاية الدوام ، وقد أوفت بوعدها.